

الشعر والسلطة في العصر المملوكي*

د. ياسين الأيوبي

تراوح تأثير السلطة على الشعر والشعراء والكتّاب ، في العصر المملوكي ، ما بين الهبات والصدقات التي كانت تمنح لسائر القطاعات ومنها قطاع الشعراء ٠٠٠ والرعاية المباشرة من توظيف ، ومصاحبة ، الى مطارحة الشعر ، واقتراح الموضوعات ، وما الى ذلك ٠٠ وهو ما تعالجه العناوين الآتية :

أولا - علاقة السلطة بالشعر

أردنا بذلك ، نظرة السلطان الى جمهرة الشعراء ، وكيفية تعامله معهم ، مما أدى الى نمطية معينة من الكتابة الشعرية ، هي وليدة مواقف وأحاسيس معظمها الى جانب السلطة .

١ - فضل الملوك والأمراء :

من الأمثلة الدالة على ذلك ، حكاية الشاعر المصري ، جمال الدين ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ مع الملكين الأيوبيين المؤيد أبي الفداء وولده الأفضل حيث بلغت منزلته لديهما ولا سيما المؤيد ، درجة لم يرق اليها شاعر آخر ، باستثناء قلة ، بينهم أبو الطيب المتنبي مع الأمير سيف الدولة الحمداني ، وصفي الدين الحلبي مع ملوك بني أرتق والملك المؤيد نفسه ، وسيأتي الكلام عليهما فيما بعد .

لقد قدم الملك المؤيد (١) (وهو أحد الأمراء الأيوبيين الذين أكرمهم الملك الناصر محمد بن قلاوون فاقطعه ولاية حماة ، وجعله ملكاً عليها لما تمتع به المؤيد من قدرات ومناقب

علمية وأدبية وخلقية رفيعة ، وقد توفي المؤيد سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) قدم للشاعر ابن نباتة من النعم والمراتب والهبات ، الشيء الكثير ، عبّر عنها الشاعر وصورها في شعره بأمانة تكاد تكون حرفية ، وهو ما عرف لدى الشاعر « بالمؤيديات » . فقد كفاه المؤيد ذل السؤال وابتدال الشعر فأجازته وأنابه ووظفله راتباً كل عام (٢) ثم توطدت العلاقة ، ففدا الشاعر صفى المؤيد وصاحبه ورفيقه في مناسبات عدة ولا سيما مجالس الأدب والشعر مع عدد آخر من الشعراء والأدباء ، فكان لا بد من نظم قصائده « المؤيديات » التي حملت شكر الشاعر وطمأنينة روحه المتعشة الى حاكم أديب عالم كأبي الفداء .

« صنتني عن أذى الزمان وقد حا
وانبرى غيثك الهتون بجدوى
ول حربي واستكبر استكبارا
علمتني مذائحا لا تبارى » (٣)
ثم يقول :

« لولاك ما أمست قريحتي
أنت الذي روت غمائم
فلقد وجدت ديار ملكك
قهرت حماة لي العدا
الكليلة شاعره
رباي العاطره
بالسعادة عامره
فحمة عندي القاهره » (٤)

ولم يكن صفى الدين الحلبي (المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) أقل تنعماً مع الملك المؤيد ، من ابن نباتة ، فقد حظي هو الآخر بأياذ بيضاء وأيام سنية ، سال فيها مداد حبره الشعري ، وعبر عن ذلك بقصائد وموشحات حفظها لنا ديوانه المطبوع ، من هذه القصائد واحدة بعنوان « الملك الجامع الفضائل » ومطلعها :

« راجع الطرف باللقا وسنه
ولو بمدح المؤيد اعتبروا
الملك الجامع الفضائل والبا
... أوسعت للعبد من هباتك ما
آنسه فضلكم فما طلبت
أسلاه عن أهله صنيعكم
ان ذاق غمضا من بعدكم وسنه
لبدلت سيئاتهم حسنه
ذل في الصالحات ما خزنه
أضاق عن حمل بعضه عطنه
مسكنه نفسه ، ولا سكنه
به ، وأنساه ظلكم وطنه » (٥)

وقال الحلبي ، من قصيدة يشكر فيها انعامه وقد حمل اليه تحفاً وكسوات البيت وآلاته ومهمات جميعها :

« وقافية شبيه الشمس حسنا
لها فضل على غرر القوافي
غدت تثني على عليك لما
تردد بين كفي واليراع
كما فضل البقاع على البقاع
ضمنت لربها نجح المساعي » (٦)

ولم تكن علاقة شاعرنا بالملك الأفضل، أقل وثوقاً مما كانت عليه مع المؤيد . بل تجاوزت العلاقة كل المقاييس السابقة المألوفة بحيث « تحولت الى نوع من المخالطة الكفوءة » أو المتكافئة ، فيخرجان معاً الى الصيد ، ويلعبان في رماية البندق ، فتُحمل الهدايا والتحف من الأفضل الى الشاعر الذي كان يبعث الى الملك بعلام تركي يعتذر اليه عن الانقطاع ويبيدي شغفاً بلكياه » (٧) .

أما العلاقة التي تعد نموذجاً للعلاقات المميزة بين الشعراء والحكام ، فهي تلك التي كانت للصفي الحلبي مع ملوك بني أرتق الذين حكموا مدينة « ماردين » من قبل سلاطين المغول ، ومنحوا - كملوك بني أيوب في حماة - استقلالاً ذاتياً واسع المدى ، دفعت الشاعر الحلبي الى الإقامة الطويلة في بلاطهم ، يعيش مع ملوك هذه المدينة أحلى أيام عمره ، بمعزل عن الفتن والحروب والمطامع الجشعة . وهكذا استقر الشاعر في كنف بني أرتق استقراراً نادراً ، فكان له مرتب يتقاضاه من ملوك بني أرتق ، جمع منه ومن الأعطيات والهدايا العديدة ، ومن أرباحه التجارية ، ثروة كبيرة بلغت حدود المائة ألف دينار (٨) فكانت قصائده « الأرتقيات » التي سماها : « درر النحور في مدائح الملك المنصور » نجم الدين أبي الفتح غازي - وهي عبارة عن تسع وعشرين قصيدة ، كل واحدة منها على حرف من حروف الهجاء ، تبدأ أبيات القصيدة كلها ، وتنتهي بحرف واحد ، وهكذا القصائد التسع والعشرون (٩) .

نورد على ذلك بيتين ، من قصيدته الهمزية :

« ألهيت' عن قومي بملكٍ عنده تنسى البنون فضائل الآباء
اني تركت الناس حين وجدته ترك التيمم في وجود الماء » (١٠)

هذا من حيث العطاء المادي والمعنوي ، الذي رمزنا اليه بمثالين اثنين ، واحد للشاعر ابن نباتة المصري ، والثاني لصفي الدين الحلبي ، والأمثلة على ذلك كثيرة لا مجال لعرضها .

أما من حيث التأمين الحياتي الدائم ، فقد قامت السلطة بما يشبه وظائفنا الحكومية اليوم ، ووظفت معظم الكتاب والشعراء في شتى ميادين الخدمات الرسمية العامة ذات النفوذ ، نورد بعض الأسماء على سبيل التأكيد كالشاعر ابن نباتة الذي استطاع بفضل القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري ، أن يحقق حلماً طالما راوده وهو التوقيع في ديوان السلطان أو نائبه . وهي وظيفة عالية ، لم يكن يقوم بها الا كتّاب الانشاء ، ثم كتّاب السر (١١) وكان ذلك سنة ٧٤٣ هـ ، في حكم السلطان الناصر أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ومن الأسماء الأدبية الأخرى التي شغلت مناصب عالية في دولة المماليك ، كل من الشعراء « الأمير سيف الدين أبي الحسن علي بن عمر بن قزل المعروف « بالمشيد » الذي تولى

شد الدواوين بمصر سنوات طويلاً» (١٢) والشاعر الشيخ الامام الرباني أبي زكريا يحيى بن يوسف بن عبد السلام **الصرصري الضير**» (١٣) والشاعر الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن بليمان ، الذي رقي رتبة النيابة ، وكان أول المستشارين لدى السلطان الظاهر بيبرس الذي لم يكن يصغي الا اليه، يفعل ما يشير به عليه ، وقد توفي سنة ٦٦٣ هـ (١٤) . والرئيس الشاعر كمال الدين أحمد بن عبد العزيز المعروف بابن العجمي ، كتب للملك الناصر صلاح الدين يوسف، وكان من أعيان الكتّاب وأماثلهم (١٥) والشاعر القاضي علاء الدين أحمد بن عبد الوهاب المعروف بابن بنت الأعز الذي تولى منصب القضاء وحسبة القاهرة ونظر الأحباس ، فضلا عن التدريس ، وقد توفي بالقاهرة سنة ٦٩٩ هـ (١٦) .

وبكلمة موجزة ، نقول : ان هناك نقلة نوعية ، حدثت لشعراء هذا العصر وكتّابه، بحيث لا نكاد نجد واحداً منهم لم يكن في أعلى الوظائف ، وملقباً بأحسن الألقاب ، كالأمير ، الرئيس ، والشيخ ، والصاحب ، وغيرهما لم نعهده مع معظم شعراء بني العباس ولا بني أمية ، على عظمة هؤلاء وطول باعهم الشعري والسياسي . وكله يؤكد علو المكانة التي عرفها شعراء المماليك، وتقدير السلاطين والأمراء ، لعلمهم وأدبهم .

ونمثل لذلك أيضاً بالصاحب والوزير شمس الدين محمد بن عثمان المعروف بابن السلعوس ، أحد الشعراء الكتّاب المقربين جداً من الملك الأشرف خليل بن قلاوون . الذي عينه في زمن والده ، محتسب دمشق ، ثم لما مات المنصور قلاوون ، عينه الأشرف وزيراً ، له المقام العالي ، والحظ الأوفر من وجدان الملك ، « فكان اذا ركب ، تمشي الأمراء الكبار في خدمته » ، حتى الوزير علم الدين سنجر الشجاعي كان يقف في خدمته (١٧) وفيما يتعلق بوظائف الدواوين ، كانت هناك وظيفة كاتب الانشاء التي قسمها المماليك الى طبقتين :

الأولى : كتّاب الدست : وهم الذين يجلسون بين يدي السلطان وتحت كاتب السر ، وقد رأسهم في البداية ، الكاتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، الذي جعل كاتب الديوان ذا مقام عال ، يحافظ عليه معظم سلاطين المماليك من بعد .

والثانية : كتّاب الدرج ، وهم الموقعون على ما يصدر عن كاتب السر أو الأمير أو الوزير (١٨) .

وعلى هذا فان كتابة السر التي تقلدها عدد من الكتّاب والشعراء ، هي بمثابة وسام يعلقه سلاطين المماليك على صدور الكتّاب والشعراء ، لأنهم وضعوهم ، بذلك في موضع لم يكن يعرفه أو يتوصل اليه خاصة السلطان وكبار رجال الدولة ، الذين أصيبوا بالغيرة والحسد الشديدين ، لما كان يملكه الكاتب من أسرار ، طالما سمعوا هم اليها بطريقة من الطرق . فصح فيه - أي كاتب السر - قول عبد الله بن الأزرقي ، ان هو وشى أو تلاعب بالأسرار :

« فلا فرق عندي بين قاض وكاتب وشى ذا بحق أو قضى بباطل » (١٩)

عدا الوظائف العالية التي شغلها الشعراء والكتاب ، حظي هؤلاء بنعمة أخرى هي احتضانهم معنوياً وعملياً من قبل السلاطين والأمراء الكبار ، فيحسبون على هذا البلاط أو ذاك ، ويكتسبون هذه الصفة فتلتصق بهم ، كما يلصق اللقب أو الكنية ، فيقال عن هذا الشاعر أو غيره ، من شعراء الملك الناصر ، أو الظاهر ، أو المنصور . . . وهكذا . . . كما نسب الشاعران ابن نباتة وصفي الدين الحلبي - في مرحلة طويلة من حياتهما - الى البلاط الأيوبي ، لدى الملكين المؤيد والأفضل ، اللذين حكما حماة في ظل دولة المماليك .

وكانتساب الشاعر تاج الدين التنوخي - محمد بن عبد المنعم - المعروف بابن شقير الى بلاط الملك الناصر (صلاح الدين يوسف بن عبدالعزيز) (٢٠) .

أو الشاعر أمين الدين ، علي بن عثمان ، المعروف بأمين الدين السليمانى الذي وصفه ابن تغري بردي بقوله : « كان فاضلاً مقتدرأعلى النظم ، وهو من أعيان شعراء الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام » (٢١)

أو الشاعر محمد بن يوسف التتغري الذي نسبته ابن تغري بردي الى شعراء الملك الأشرف موسى شاه أرمن الأيوبي (٢٢) .

وقد لا نصل الى نهاية اذا نحن تقصينا محاضن الشعراء « ومرايضهم » في البلاطات والقصور ، لأن هذا كان من دأب السلطة المملوكية ومن استظل بظلها من الحكام والسلاطين البعيدين عن مركز السلطة في الديار المصرية ، يكرمون الأدب وأهله ، ويسعون الى استرضاء الناس وكسب تأييدهم ، ومن أقدر على اذاعة أخبارهم ، ونشر فضائلهم ، من الشعراء ؟

من أجل ذلك لم يكتف السلطان بالتوظيف و « التنسيب » وصرف المعاش ، بل كان يوزع الصدقات الدورية على الشعراء الذين لم يكن لهم حظوة دائمة في الوظيفة أو « الاحتواء » البلاطي . . . ويمنح المكافآت والخلع والهدايا ، حتى اذا حُجبت الصدقة عن بعض الشعراء ارتفع صوتهم معترضين ، منتقدين ، كما فعل الشاعر أبو عمرو عثمان بن سعيد المعروف (بابن تَوَلَّوْا) ساخراً من قاضي مصر يومئذ ، حينما أمر بقطع صدقات الشعراء ، باستثناء الشاعر أبي الحسين الجزار ، فقال ابن تولوا :

« تقدم القاضي لنوابه بقطع رزق البر والفاجر

ووفر الجزاء من بينهم فأعجب للطف التيس بالجازر » (٢٣)

وهو القائل ، هاجياً بالمرارة ، واقعه الميشي في مصر :

« يا أهل مصر وجدت أيديكم عن بسطها بالنوال ، منقبضة

فمذ عدمت الغداء عندكم أكلت كتبي كأنني أرضه » (٢٤)

٢ - تأثير السلطة المباشر في النتاج الأدبي :

بلغ تأثير الملوك والأعيان في حياة الكتّاب والشعراء ، حد التدخل المباشر في نتاجهم الأدبي ، من نظم ، وجمع أشعار ودواوين ، واقتراح الفنون الشعرية وأوزانها وقوافيها ، أو تأليف وتصنيف ، أو حتى « تأمير » كما حصل لابن نباتة في البلاط المؤيدي (٢٥) .
وتلك مآثرة أخرى من مآثر هذا العصر وسلاطينه ، لا يسع الدارس نكرانها أو تجاهلها .

فأخبار ابن نباتة في البلاط الأيوبي الحموي ، بادية لكل ذي اهتمام بشعره وعصره ، فقد جمع وألف وصنّف معظم نتاجه ، بطلب من الملك المؤيد ، مباشرة أو عن طريق كتّابه وأولياء دولته ، أورد بعضها على سبيل المثال :

« منتخب الهدية في المدائح المؤيدية » وهي قصائد المدح المسطرة في الملك المؤيد ، أمره بجمعها أحد أولياء الدولة المؤيدية لتقديمها هدية الى الملك المؤيد (٢٦) .

« سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وهو عمل نقدي ، طلبه منه المؤيد شخصياً وألح عليه بقبول هذه المهمة ، بعد أن اعتذر ابن نباتة ، في بادئ الأمر .

« الفاضل من انشاء الفاضل » وهو مختارات من نثر القاضي الفاضل الأدبي ، الذي سمع المؤيد مقتطفات منه ، فأمر الشاعر أن يجمع ذلك في كتاب خاص (٢٧) .

ويرى الدكتور عمر موسى باشا أن أشهر آثاره النثرية - بالإضافة الى آثاره الشعرية - قد وضعت للملك المؤيد أبي الفداء ، وبتشجيع منه « استناداً الى ما يقوله ابن نباتة نفسه في فاتحة خطبة كل كتاب (٢٨) » .

أما صفي الدين الحلي ، فقد تأثر بدوره بذوق الملك المؤيد الأدبي ، كان من حصيلة ذلك أن نظم الصفي بعض القصائد ، منها ما هو من اقتراح المؤيد في الوزن والقافية ، ومنها ما كان رغبة في ارضاء ذوقه الشعري . وقد أملى عليه المؤيد ، وزناً من الموشحات وطلب منه توشيعه بلزوم ما لا يلزم (٢٩) .

ومن القصائد التي اقترحها عليه المؤيد ، بحراً وقافية : « الملك الجامع الفضائل » المار ذكرها أعلاه . أما الموشح المقترح في (لزوم ما لا يلزم) فهو بعنوان : « في حمى الملك » (٣٠) .

ولاننسى المناسبة التي دفعت صفي الدين الى جمع أشعاره كلها في ديوان واحد ، وكان ذلك بطلب من كاتب السر ورئيس كتّاب الانشاء في بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وبإشارة من هذا الأخير ، في الموضوعات ، والتبويب ، والترتيب ، ليكون - كما يقول الصفي في مقدمة ديوانه - « ديواناً للمحاضرة ، ومجموعاً للمذاكرة ، فأجبت بالسمع والطاعة » (٣١) .

ثانياً : الشعر والسلطة

إذا كانت السلطة قد مدت الشعراء بالألقاب والأرزاق والوظائف والمراتب العالية، بما لا يعوزهم التزلف والتبذل والتملق ، في حياتهم وعلاقاتهم ، لدى الغالبية منهم ، فإن هؤلاء أيضاً ، قد وفوا بالمعطيات الممنوحة الموفورة لأقلامهم ، وأسهموا في حركة العمران والتطور ، ونطقوا بما ملكت أيمانهم من حب واعجاب وتعظيم ، للسلطان العادل القادر ، المتمكن من أعدائه ، ففاضت عواطفهم تسطر قصائد الثناء والتقدير ، وترفع من مستوى النصر ، أو الانجاز الحضاري العمراني ، محققين بذلك معادلة لا بد منها :

العطاء بالعطاء ، والتضحية والصمود ، بالاشادة والتقدير .

ومن طبيعة هذا العصر ، أن حركة الشعر فيه ، لم تدخل في صراعات حزبية أو حتى شعبية ، كما كانت الحال في العصرين السابقين : العباسي والأموي .

جلّ ما هنالك تأييد وتمعّيد لسياسة الدولة المملوكية في حربها مع أعداء الاسلام، والذود عن حياض الديار الاسلامية التي كانت في كنفها ، ومعظمها من البلدان العربية . وفي ذلك شبه كبير بحركة الشعر في العصر الاسلامي الأول ، حيث كانت المعركة محتدمة بين شعراء الدعوة الاسلامية، وشعراء الكفار .

أضف الى ذلك ، الصدق الشعوري الذي يصبغ معظم القصائد «الجهادية» أو حتى « السلطانية » التي كانت تقال في مستهل ولاية السلاطين وما يشبهها من مناسبات قومية أو دينية . ومع الصدق الشعوري ، صدق فني يصل في بعض الأحيان الى حدود الشعر الملحمي ، لطول بعض القصائد ، واحتدام التصوير الفني لمعارك النصر المدوية (٣٢) .

وقد يتبادر الى الذهن سؤال : هل استطاع شعراء هذه المرحلة استباق الأحداث ، والارهاص بما يجدر في مقبل الأيام ومصائر الأمم والشعوب ؟

فنجيب ، بأن معظم شعراء العربية ، ان لم نقل جميعهم ، لم يؤثروا هذه الخاصية فيفعلوا ما فعل بعض شعراء الفرنجة المعاصرين ، وبعض الشعراء العرب الحديثين ، في هذا الموضوع ، من مثل التنبؤ والتعبير المسبق عما تؤول اليه الحياة الانسانية والقومية من تحولات واضطرابات ، عنيت بذلك ، مثلاً ، شاعراً عالمياً ك ت . س . اليوت ، أو شاعراً عربياً ك خليل حاوي .

ولعل أبرز العناوين التي ينبغي تسجيلها ، ومعالجتها في هذا المضمار :

- ١ - مواكبة الشعراء للمناسبات القومية والسلطانية .
- ٢ - نفوذ الشعر في الواقع ، والطموح ، والفضل الكبير .
- ٣ - الشعر النقدي المسؤول ، في مسائل التقويم والتقدير .
- ٤ - ثغرات في سلوك الشعراء .
- ٥ - خاتمة .

١ - مواكبة الشعراء للمناسبات القومية والسلطانية :

بادئ ذي بدء ، لا بد من تأكيد ناحية - بالنسبة الى تقليد السلاطين مراسيم السلطنة من قبل الخليفة - وهي قيام الشعراء بما يشبه العمل (البروتوكولي) في القاء الخطب والقصائد . وهو عمل يدخل أساساً في صلب مهام الشاعر المنتسب الى بلاطات الدولة ، والمعيّن في احدى وظائفها . من هذه الزاوية لا أرى لزوم الانتقاص من قدر الشعراء والكتاب ، والا كان علينا اليوم أن نجرد كل متحدث رسمي أو موظف حكومي ، يشيد بمناقب الحاكم والحكم ، من صفات الكرامة الشخصية ، ونعمته بالذيلية والارتزاق الرخيص .

ونمثل لهذا التقليد ، الذي أضحى عرفاً يمارس مع كل سلطان جديد ، بقصيدة للشاعر الشيخ شهاب الدين بن الأعرج السعدي المتوفى سنة ٧٨٥ هـ ، وهو يهنئ السلطان الظاهر برقوق ، السلطان السادس والعشرين في دولة المماليك ، بقوله :

تولى الملك برقوق المفدى	بسعد الجد ، والأقدار حتم
أتته أئمة الاسلام طراً	الى أبوابه سعيّاً يؤمّ
وجاء له الخليفة في سواد	فسلطنه وفي الآفاق رغم
وقلده بسيف الملك طوعاً	فيا لك صارماً ، ما فيه ثلم
وألْبسه السواد فزاد حسناً	كان جبينه بدر متمّ (٣٣)

أما مواكبة السلطان في الوقائع القومية الكبيرة ، من فتح وانتصار ، أو هزيمة وانكسار ، فقد لَهجت ألسنة الشعراء في ذلك . ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء ، شهاب الدين محمود بن سلمان الحلبي ، الملقب بالشهاب محمود (٦٤٤ هـ - ٧٢٥ هـ / ١٢٤٧ - ١٣٢٥ م) الذي نظم قصيدة رائية طويلة ، أثبت منها ابن كثير أربعين بيتاً ، وحذف الباقي ، وهو كثير .

وهي في مدح السلطان أشرف خليل بن قلاوون ، عقب انتصاره على جيش الروم وفتح قلعة الروم ، الى الشمال من حلب . وكان يوماً مشهوداً خلدته المؤرخون والكتاب والشعراء . ومن قصيدة الشهاب محمود . نورد الأبيات التالية :

» ٠٠٠ صرفت اليهم همة لو صرفتها	الى البحر لاستولى على مده الجزر
وما قلعة الروم التي حزت فتحها	وان عظمت الا الى غيره ، جسر
طليعة ما يأتي من الفتح بعدها	كما لاح قبل الشمس ، في الأفق الفجر
فصبحتّها بالجيش كالروض بهجة	صوارمه أنهاره ، والقنا الزهر
٠٠٠ ولو وردت ماء الفرات خيولهم	لقليل هنا ، قد كان فيما مضى نهر

٠٠٠ أقامت صلاة الحرب ليلا صخورها
فأكثرها شفع وأكبرها وتر
فأضحت بها كالصب يخفي غرامه
حذار أعاديه وفي قلبه جمر
وشبت بها النيران حتى تمزقت
وباحت يما أخفته وانهتك الستر» (٣٤)

قد لا ننصف الشاعر إذا قلنا : ان هذه القصيدة موفقة فقط ، لأن ما فيها من نفس ملحمي واستعارات وكنايات فنية غنية الإيحاءات ، يجعلها في مصاف الشعر العربي الرفيع ، في العصور كافة ، حيث غاب التأنق اللفظي والزخرف البديعي ، وتنحى جابا التعفيد اللعوي والمعاذلة الأسلوبية ، ليحل محلها انسياب الشعر الصادق ، وتوهج القلم الذي يخطه ، وهو شيء ليس اعتيادياً في عصر كعصر المماليك .

وقبل هذه الواقعة « الأشرفية » المظفرة ، كان للشهاب محمود حضور شعري آخر ، مع السلطان الظاهر بيبرس ، اثر بطولة الظاهر وجيشه ، مع جيش التتار على الحصون والثغور الشمالية الشرقية من الديار الشامية ، موقعاً فيهم هزائم متلاحقة ، ارتقى شعر الشهاب إليها ، فصور ذلك تصويراً جميلاً ، شمع فيه صاحبه عبر النفس الملحمي :

« سرّ حيث شئت لك المهيمن جار
لم يبق للدين الذي أظهرته
لما تراقصت الرؤوس وحركت
حملتك أمواج الفرات ومن رأى
شبتك مساعيك المعازل والورى
هذي منعت ، وهؤلاء حميتهم
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً
واحكم فطوع مرادك الأقدار
يا ركنه ، عند الأعادي ثار
من مطربات قسيك الأوتار
بحراً سواك تقلته الأنهار
والترب والآساد والأطيار
وسقيت تلك وعمّ ذا الإيسار
تبقى - بقيت - وتذهب الأعصار» (٣٥)

وليست بعيدة عن ذلك - وان على شيء من التكلف البديعي - قصائد الشاعر المملوكي موفق الدين الأنصاري - المشار اليه في الحاشية أدناه - في مواكبته انتصارات السلطان قطز ، ثالث سلاطين المماليك ، وصاحب النصر العظيم في وقعة عين جالوت الشهيرة .

كذلك انتصار الملك الأيوبي المنصور الثاني ، ملك حماة ، زمن السلطان قطز ، في معارك مشابهة ، فلنسمعه يهنئ المنصور ، مشيداً ببطولته النادرة :

« رويت أكباد القنا بدمائهم
فغدا لسيفك في رقاب كماتها
٠٠٠ دارت رحي الحرب الزبون عليهم
وطويت عن مصر فسيح مراحل
لما أطال سواك في تعطيشها
حصد المناجل في يبيس حشيشها
فغدت رؤوسهم حطام جريشها
ما بين بركتها وبين عريشها ٠٠» (٣٦)

وقبل أن نختم الكلام حول هذه الفقرة المخصصة لمواكبة الشعراء للمناسبات القومية الكبرى ، يحسن التوقف قليلاً عند شاعر آخر ، واكب السلطان المنصور قلاوون في غزواته ومدافعاته عن الثغور الشامية في وجه التتار من السلطان المغولي غازان وغطى بعض الشيء فسحة من النصر العسكري الواسع الذي لم يكن الشاعر المعني هذا وحده في معمعة الشعر ، بل شاركه آخرون ، بينهم الشاعر علاء الدين الوداعي ، الذي قال ، ساخراً من قول السلطان غازان عندما أعلن أنه جاء إلى الشام للفرجة ، فإذا به يُهزم شر هزيمة :

« قولوا لغازان بأن جيوشه جاءوا ، ففرجناهم بالشام
في سرحة المرج التي هاماتهم منثورها ، وشقائق الأجسام
ما كان أشامها عليهم فرجة غمّت ، وأبركها على الاسلام ! » (٣٧)

أما الشاعر الذي رغبنا في التوقف عنده ، فهو شمس الدين الطيبي (الحسين بن محمد المتوفى سنة ٧٤٣ هـ) (٣٨) ، فقد نظم قصيدة طويلة تجاوزت المائة بيت ، أورد منها الصفدي ، اثنين وأربعين بيتاً ، نختار منها ما يلي :

- ١ - « برق الصوارم للأبصار يختطف والنقع يحكي سحاباً بالدماء يكف
- ٢ - ٠٠ يقي بهم ملّة الاسلام ناصرها كما يقي الدرة المكنونة الصدف
- ٣ - وجاهدوا في سبيل الله وانتصروا من بعد ظلم ومما ساءهم أنفوا
- ٤ - ٠٠ دارت عليهم من الشجعان دائرة فما نجا سالم منهم وقد زحفوا
- ٥ - فروا من السيف ملعونين حيث سروا وقتلوا في البراري حيثما ثقفوا
- ٦ - وملّت الأرض قتلاهم بما قذفت منهم وقد ضاق منها المهمة القذّف
- ٧ - والطير والوحش قد عافت لحومهم ففي مزاج الضواري منهم قرف

ثم يخاطب السلطان غازان بلغة العشق والغرام الذي يضطرم بصدر غازان «شوقاً» إلى دمشق :

- ٨ - ما أنت كنفو عروس الشام تخطبها جهلا ، وأنت إليها الهائم الدنف
- ٩ - قد مات قبلك آباء بحسرتها وكلهم مغرم مغرى بها كلف
- ١٠ - ان الذي في جحيم النار مسكنه لاتستباح له الجنات والغرف » (٣٨)

لا أظن أن شعراً كهذا ، هو من نوع الموالة والمدح التقليدي ، الذي صيغت به معظم العصور الأدبية السابقة ، إنما هوشحنات التوتر النفسي الجائشة في جنبات صاحبها ،

قُيِّضَ لها قلم ناصع وقريحة نيّرة ، وذهن مثقف بشتى أفانين الثقافة المتاحة لأبناء هذا العصر . ولا أظن أنني قرأت شعراً مبدعاً - بالمعنى الفني لكلمة « ابداع » - كالذي قرأته في الأبيات ذات الأرقام (٦ - ١٠) .

ويكفي العصر فخراً أن يكون بين ظهرانيه شعرفيع كهذا، وشاعر مجوّد كالطبيبي .

٢ - نفوذ الشعر في الواقع ، والطموح ، والفضل الكبير

درج بعض شعراء المماليك على مسaire السلطان ومواكبته في المناسبات والمواسم وغيرها . . . لكن البعض الآخر تجاوز ذلك الى ما هو أبعد من المواكبة ، فبنوا لأنفسهم ، وفي معظم قصائدهم ، ولا سيما المدحية ، هيكلأ أطلق عليه اسم « دولة الشعر » وهي كناية عن مشاعر تفوّق وتمايز دفعتهم الى نوع من الفخر الذاتي في مضماري الشعر والقريحة الشعرية التي تدفع بالكلام الشعري . من هؤلاء الشعراء ابن نباتة المصري الذي لا يتردد ، وهو في حضرة المديح السلطاني المؤيدي ، عن الاشادة بشعره وقصيدته ، مورّياً ورامزاً بصور شعرية لاتقل عن بعض صور الشعر الرمزي الحديث ، مكانة وجمالاً :

« لبابك يا ابن الأكرمين بعثتها
وأرسلتها غراء كالغصن يانعا
شبيت لها فكري وفاحت حروفها
وكم مثلها أهديتها طي مدرج
أوانس من مدح عن الغير جفّلا
وزهر الربى ريّان ، والريح سلسلا
كأنني قد دخت في الطرس مندلا
تكاد لفرط الشوق أن تتسللا » (٤٠)

من يقرأ هذه القصيدة لا يستغرب ما جاء به شاعر عربي معاصر هو الدكتور بشر فارس (١٩٠٧ - ١٩٦٣) من شعر رمزي ينطوي على معان متشابهة متداخلة ، في قصيدته المسماة « الى زائرة » والتي مطلعها :

« لو كنت ناصعة الجبين
ما روعة اللفظ المبين
هيهات تنقضني الزيارة
السحر من وحي العبارة . . » (٤١)

ومن الشعراء من كان يرفض بعض الوظائف العالية ، كمنصب القضاء ، أكثر من مرة ، مفضلاً عليه حياة حرة مستقلة ، لاترتبط بأي قيد من قيود الدولة ، كالشاعر الامام علي بن سعيد البصراوي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ . فالحياة عنده : أمن وصحة وشباب ومال ، أو كما نظم في ذلك شعراً :

« أرى عناصر طيب العيش أربعة
أمنأ وصحة جسم لا يخالطها
ما زال منها ، فطيب العيش قد زال
مغاير ، والشباب الغض والمالا » (٤٢)

أمام هذا المفهوم الجميل للحياة ، لابد من توضيح نقطة هاهنا ، وهي صعوبة تحقيق هذا النمط من الحياة ، وان كان شيئاً مشروعا ، ولهذا كنا نرى الشعراء يتململون من العراقيل التي تواجههم وتضعهم على مقربة من ذل السؤال ، فينتفض بعضهم ويأبى ، ويلوح البعض الآخر بالابتعاد وقصد سبل أخرى ، مع ممدوحين آخرين ، ويستسلم الباقي لشجون الحياة ، مكتفياً بالشكوى والتذمر .

ومن هذا القبيل ، الشاعر جمال الدين أبو الحسين الجزار (٦٠١ - ٦٧٩ هـ) وهو أحد كبار الشعراء في زمانه ، وصفه ابن تغري بردي فقال : « كان من محاسن الدنيا ، وله نواذر مستظرفة ومداعبات ومفاوضات مع شعراء عصره » . (٤٣) .

ومن أشعاره في شكوى الحياة ، ما ذكره عن جهده المتواصل في سبيل الآخرين ولكن من غير مقابل يسد حاجة ولا يذهب همأ . (٤٤)

« أكلف نفسي كل يوم وليلة هموماً على من لا أفوز بخيره
كما سواد القصار بالشمس وجهه ليجهد في تبييض آتواب غيره »
(القصار - هنا - مبيض الثياب)

وكان شاعرنا يعيش من حرفة الجزارة (ذبح الخراف وبيع لحمها) ثم استرزق بالمدح ، فقصد قصور الأمراء والسلاطين ، وكسب ثروة كبيرة . لكنه كان كثير الانفاق مسرفاً على حرفته الأخيرة ، وهي حرفة الشعر والأدب ، فضلاً عن حرفته السابقة :

« يا أميراً يرجئ ويغشى لبأس ونوال في يوم حرب وسلم
لي من حرفة الجزارة والآ داب فقر يكاد ينسيني اسمي » (٤٥)

ومن الشعراء الذين لم يرتزقوا بشعرهم ، ويبيعوه في أبهاء الملوك والأمراء ، صفي الدين الحلي الذي اختط لنفسه مبدأ سار عليه معظم الأوقات ، وهو « ألا يمدح كريماً وان جل ، الا لما عده زاداً للمال في مديح النبي والآل » (٤٦) .

وبالفعل ، لم يعد هذا الشاعر عن جوهر هذا الخط . فما مدح للمدح ، ولا ألقى بشعره مع الملقين تقرباً وتنافساً لرضى الأعيان . . . وانما رد جميل الملوك واحتفاءهم به وأيادهم البيضاء عليه ، بما يملكه من جميل القول والثناء ، متمثلاً بقول المتنبي الشهير :

« لا خيل عندك تهديها ولا مال فليُسعد النطق ان لم تُسعد الحال »

وهكذا فعل مع سلاطين بني أرتق ، والناصر محمد بن قلاوون ، والملكين الأيوبيين : المؤيد والأفضل ، اللذين لم ير في قصائده فيهما سوى الرد الخلفي النبيل ، عملاً بما جاء في الآية الكريمة :

﴿ واذا حُيِّتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، أَوْ رُدُّوها ﴾ (٤٧)

بقي أن نقول : ان الخطة شيء ، والتطبيق شيء آخر ، هذا اذا أردنا أن نشدد في تفسير الدوافع التي جعلت بعض الشعراء - أمثال صفى الدين ، المعتد بنفسه ، العزوف عن تعفير جبهته على أعتاب السلاطين - يبالغ في مدح بعض الملوك والأمراء ، فيجعلهم شبه آلهة تمشي على الأرض (يسجد الملوك في أعتابهم وتخدم الأقدار في ركبهم) (٤٨) . وقس على ذلك بقية الشعراء الذين ملأهم زهو في النفس وشعور مبكر بالتفوق . ومهما يكن ، فأننا لم نقرأ شعراً يتضرع فيه صاحبه الى ممدوحه ، لتنويله ما يصبو اليه ، أو بعض ما يصبو اليه ، كما كانت الحال مع شاعر الفخر الأكبر والتعالى الأول في الشعر العربي - أبي الطيب المتنبي - في قوله لكافور :

« أبا المسك هل في الكأس شيء أناله فاني أغني منذ حين ، وتشرب » (٤٩) .

٣ - الشعر النقدي المسؤول وظاهرة التقويم والتقدير :

على الرغم من شيوع شعر المديح في ذلك العصر ، تمشياً مع تقاليد الشعر العربي منذ الجاهلية حتى عصر النهضة الأدبية ، وكذلك شعر الغزل بقسميه الأنثوي والذكري : عفيفاً - ماجناً . . . ، فأننا لم نعدم شعراء وعوا مسؤوليتهم الأدبية ، وموقعهم المميز في مجتمع يسوده الجشع والغيرة والحسد ، وانعدام الحس القومي ، فاناروا دنياهم ببعض ما ملكوا من شموع الكلام والمعرفة ، وأشاروا الى مواضع الفساد والافساد ، والتزلف والرشوة ، والطمع ، والجهل المستشري . . . وغير ذلك مما نحاول عرضه في السطور التالية .

وأول ما يستدعي الذكر في هذا الصدد ، القصيدة الرائية الطويلة التي نظمها الشاعر الدمشقي المقدسي ، عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة (٥٩٩ هـ - ٦٦٥ هـ) ونشرت في كتابه النفيس : « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » وفيها يمدح الشاعر حرفته الأساسية : الفلاحة التي تكفيه مذلة السؤال والخدمة في كنف الآخرين ، وتورثه عفة النفس وطهارتها وحرية صاحبها ، الى ما هنالك من تعرضه لمفاسد المجتمع ، وانحراف الحكام عن جادة الصواب في اسناد المناصب الى غير أهلها ، وما سوى ذلك من حكم وآراء ونظرات صائبة مفيدة . . .

وماك أهم ما تخیّرت من أبياتها البالغة مائة وستة ، أثبتها المؤلف كاملة :

« لا تلمني على الفلاحة واعلم وبها صنت ماء وجهي عن النا ٠٠ كم رأينا مدرّساً ومولّي ضحكة للورى المدرّس والعا ٠٠ ان منهم من كان يلتغ بالقا ٠٠ والذي كاتب التتار ومن سار	أنها من أجل كسب وأثرى س جميعاً وعشت في القوم حرا حقّه أن يكون منه مُعرّى كم تلقى وليس يحسن يقرأ ف ، ومنهم من كان يلتغ بالرا قصداً فائنى وأطرى
---	--

والذي قد أتى الفواحش واستك
والذي ميله الى نظم ويبي
وله في أكل الحشيشة رأي
٠٠ كلما قلت دولة الحاكم الجا
وتصدوا لأكل الوقف حتى
٠٠ فأنا اليوم أنزه القوم نفساً
٠٠ صانني الله عن مزاحمة القو
ربّ سلّم فيما تبقى ولا تح
فتراهم لأجل حاجتهم بي
حسدتني جماعة قال منهم
ويحهم ربنا هو الرازق يعطي
بر فاسأل ماذا جرى اذ تجرّ
ت وتقريب من يذاكر شعرا
وافق الفرع فيه ليلا وفجرا
ثر زالت ، قامت علينا بأخرى
ذمهم عارفوه نظماً ونثراً
بخلاصي منهم وأروح سرّاً
م على منصب فيا ربّ صبرا
وج الى من يستعبد الناس قسرا
ن يديه في قبضة الذل أسرى
قائل من هذا ، ومن أين أثرى ؟
فلا يسأل ، ويعطي كثيرا ٠٠» (٥٠)

ولم أجد شاعراً استطاع أن يفوق أبا شامة ، في فضح عيوب المجتمع ، وعرض
ظواهرها المرضية ، رافضاً كل أنواع الغبن البشري ، والنفاق الاجتماعي والكذب
والتدجيل ٠٠ ، كالشاعر البوصيري (شرف الدين محمد بن سعيد المتوفى سنة ٦٩٦ هـ /
١٢٩٦ م) الذي ذاع صيته ، اذ شدّ عن أترابه وشق طريق النقد السياسي الاجتماعي
٠٠ ويعتبر أجراً شعراء تلك الحقبة على تسجيل هفوات قومه شعباً وحكاماً ومواطنين (٥١)

ومن شعره النقدي المسؤول ، أنقل بعض ما أورده الصلاح خليل الصفدي في
كتابه القيم « الوافي بالوفيات » حول كتاب عصره من « مباشري الشرقية » :

٠٠ أمولاي الوزير غفلت عما
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً
وقد طلعت لبعضهم ذقون
تفقهت القضاة فخان كل
يتم من اللئام والكاتبينا
بهم فكانما سرقوا العيونا
ولا شربوا خمور الأندرينا
ولكن بعدما نتفوا الذقونا
أمانته وسموه الأميننا « (٥٢)

وله قصيدة أخرى نقدية ، لا تتقف عند حد المرض ، بل يجار صاحبها بصوته المكلوم
وقلبه المحروم ، ونبرة فيها كل استغاثات الضمير وجراحه . انها قصة فقره هو وعياله
الى حال يرثى لها ، ولا يجد من يعيله هنا غير قلمه الحر ، ولسانه الفصيح المتفنن .

يا أيها المولى الوزير الذي أيامه طائعة أمـره
اليك نشكو حالنا اننا حاشاك ، من قوم أولي عسره
في قلة نحن ، ولكن لنا عائلة في غاية الكثره
٠٠ وأقبل العيد وما عندهم قمح ولا خبز ولا فطره
فارحمهم ان عاينوا كعكة في يد طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها بشهقة تتبعها زفره
كم قائل يا أبتا منهم قطعت عنا الخير في كره
ما صرت تاتينا بفلس ولا بدرهم ودف ولا نقره
وأنت في خدمة قوم فهل تخدمهم يا أبتا سخره ؟ «(٥٣)

وقد لا نعيد عن الموضوعية ان نحن عرضنا لنماذج أخرى من شعر البوصيري الذي تقرأه اليوم ، فتشعر وكأن صاحبه يعيش بين ظهرانينا ، يبلسم جراح الفقراء والجوع بعشره ، ويسمو معهم الى بعض مراتب العزاء .

لكننا نفضل أن نعرض نماذج أخرى لشعراء آخرين نهذوا للفساد والظلم، ولا مسوا جدار العلة الاجتماعية المتفشية في كل زمان ومكان ٠٠ ومن أمثال هؤلاء الشاعر ابن المنير (أبي العباس أحمد محمد المتوفى سنة ٦٨٣ هـ) ٠ وقد مارس مهمة القضاء فحكم وعدل وقدر القضاء العادلين وردّل الجائرين .

وما هو ذا يمدح القاضي الأديب شمس الدين ابن خلكان :

« ليس شمس الضحا كأوصاف شمس الذ ين قاضي القضاء حاشا وكلا
تلك مهما علت محلا ثنت ظلا ٠٠ لا وهذا مهما علا مد ظلا » (٥٤)
أما القاضي الظالم الذي يهجو شاعرنا هنا ، فهو زين الدين بن أبي الفرج لئنا نازعه في الحكم :

« قل لمن يدعي المناصب بالجه ٠٠٠٠ ل تنح عنها لمن هو أعلم
ان تكن في ربيع وليت يوما فعليك القضاء بعد محرم » (٥٥)

أما الشاعر شهاب الدين الأعرج السعدي (توفي سنة ٧٩٥ هـ) فقد تصدى للنقد السياسي العام ، بدءاً بالشعوب الغريبة ، وانتهاء بالسلطان نفسه ٠ مع الإشارة الى أن هذا الشاعر كان مؤدب أولاد الأكابر ٠ ومع ذلك فقد رفض السياسة المالية الخرقاء في قوله:

« وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس

وقد جمّعته القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثلث والخمس

فلترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف، والخلّاق في السدس» (٥٦)

ولم يقف الشعر عند حدود الهجاء والسخرية وعرض السلبيات ، بل صار الى الرثاء الذي وظفوه هو الآخر ، لاطهار نقيمتهم على المفترى والمعتدي ، وألمهم وعذابهم لأجل الضحية البريئة . . سواء أكان ذلك لدى عامة الشعب أم في عليّة القوم .

وخير مثال نسوقه هنا ، قصة الأمير تنكز - سيف الدين أبي سعيد - نائب السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، على الشام . وكان عنوان المسؤول الحكيم الحليم الشجاع المدبر لشؤون الرعية ، الحافظ أمانات الناس أحبه السلطان وأكرمه ، وكتب اليه بأحسن النعوت والألقاب ، ما لم يفعله مع نائب غيره . فما كان من الأمراء والنواب الآخرين الا أن دبروا له مكيّدة محكمة ، حوّلوه بعدها من الرجل النزيه « العفيف اليد والفرج » الى مجرم حرب يستحق عقوبة الاعدام (٥٧) . فكان صوت الشعر هنا ، من أصفى الأصوات وأصدقها ، لم يصدر عن زلفى أو مصلحة ، أو أي اغراء آخر . تجسد ذلك في مراثي الشعراء للأمير تنكز ، حفظت فضائل الأمير ، وخلدتها على الأيام ، بعد أن طمسها فساد الخلق اللئيم ، وحاول دفنها مع صاحبها ، فما أفلح .

ومن جميل ما قرأت من هذه القصائد، مرثية الأديب الشاعر والمؤرخ الصلاح خليل ابن ابيك الصفدي، ضمّنتها مشاعره الصادقة، وسخطه من الأقدار التي تضع الرفيع وترفع الوضيع ، والشعر سلس هادئ متزن ، ليس فيه تشنج الحاقد أو اختلال المفجوع :

« كذا تسري الخطوب الى الكرام وتسعى تحت أذيال الظلام

. . فكم ملك غدا في الأمن دهرأ وآل الى انتقال وانتقام

اذا ما أبرم المقدار أمراً رأيت الصقر من صيد الحمام

وهل يرجى من الدنيا وفاء ولم تطبع على رعي الذمام

تنكّر يوم تنكّر كل عرف وسام الذل فينا كل سام

بكيت دمشق لما غاب عنها وأوحش أفتقها بدر التمام

فيا تمزيق شمل العدل فينا ويا تفريق ذاك الانتظام

ويا لمصيبة بدمشق حلّت شدائدنا بأحداث عظام

ثم يعرض الصفدي لعدل المرثي وبأسه وشدة هيئته على الأعداء ، في معاقلمهم ، مما يؤلّف الكلام فيه ، ويختم قصيدته التي بلغت اثنين وأربعين بيتاً ، لا بالاستسقاء والاسترحام ، بل بما عرف فيه من خير وفضل عرفهما الناس في أيامه وقطفوا ثمارها :

وهيئته سرت شرقاً وغرباً
 وشاعت عنه في مصر وشام
 يُراعُ المغل في «توريز» منه
 ويطلق أرضهم في كل عام
 إذا ما قيل : هذا الليث وافى
 مضوا هرباً كأمثال النعام «(٥٨)

وقبل أن نختم الكلام في هذه الفقرة ، لا بد من التعرض لموضوعة أخرى ، تتصل بموضوعة النقد السياسي والاجتماعي والديني ، وهي أن علاقة الشعراء بممدوحيهـم لم تكن تقوم دائماً على مـادح وممدوح ، يقف الأول في رتبة دنيا والثاني في رتبة عليا ، بل كثيراً ما توحدت الرتب وتساوت المقامات ، وصدر المدح تلقائياً مع خلجات الوجدان ، وليس غرضه المدح التقليدي ، بل شيء آخر هو التقدير الذاتي ، والموضوعي في آن معاً ، تماماً كالذي رأيناه في شعر النقد المسؤول الذي سيطر عليه الهجاء والنقمة والنفور المؤلم ..

وإذا بنا هنا أمام نقد آخر ، يسوده الرضا والسعادة ، وشيء من الاسهام ببناء صرح الحضارة الانسانية .. ولا فرق حينئذ بين من هو في سدة الحكم أو هو في صفوف الشعب (٥٩) .

ولا ننسى انحراف بعض الشعراء عن جادة الشعر المسؤول ، وحتى الفكـه الطريف المـالجـن ، الى ناحية أخرى ، لا يكاد يخلو منها عصر من العصور ، ولا شاعر من الشعراء ، عنيت ناحية المـالأة ، والمصانعة الضعيفة التي تجعل الشاعر أحد الشحاذين المـداجين ، يبيع شعره بدريهمات ، كما يباع الرقيق في سوق النخاسة . وليس لنا تحليل هذه الظاهرة ، حسبنا القول : ان النفوس معادن ، فمنها الجواهر الثمين ، ومنها الحديد الصدئ أو ما هو أرخص بكثير . فلا نـعجب لوجود صنف من الشعراء باعوا أنفسهم وبضاعتهم في سوق الكساد ، حتى الشاعر الجواد ، نراه قد حاد عن أصالة جوهره وغدا شاعراً من الدرجة الأخيرة ، كحال كثير من الشعراء الكبار ، بدءاً بالمتنبي وصفي الدين الحلي ، وابن نباتة ، انتهاء بالشعراء الرصينيين المتزنين جداً .

من هؤلاء الأخيرين ، نذكر الشيخ الفاضل العالم ابن الصاحب (أحمد بن يوسف المتوفى سنة ٦٦٨ هـ) وكانت له وجاهة ورياسة ، ثم ترك ذلك ، وأقبل على الحرفة (أي فعل الحرافيش ، وهم من أبناء الرعاع والسوقة المبتذلين المتحللين من القوانين ، أو بالأحرى المهملين لذلك اهمالاً كلياً) وصحبة الحرافيش والتشبه بهم في اللباس والطريقة وأكل الحشيشة . «(٦٠)

ومن شعره في مدح الحشيشة ، هذا المقطع :

« في خمار الحشيش معنى مرامي يا أهيل العقول والأفهام
حرّموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام » (٦١)

★ ★ ★

□ خاتمة :

لعلنا أطلنا في الكلام ، وبلغنا بالقارئ بعض حالات الملل ، وله أن يشعر بذلك لأن كثيراً من القراء والمثقفين ، قد مروا في دراساتهم الشخصية أو الجامعية ، بهذا العصر - العصر المملوكي - مرور الكرام ، وتلقوا أحكاماً اعتباطية بحق هذا العصر . فقليل : « انحطاط » وقليل : « فترة مظلمة » وقليل ، وقليل . وكنا من هذا الرأي قبل ولوج عالمه ، وتبين معالمه المضيئة في أكثر من جهة ، ولحقبة طويلة . وإذا كان لهذا البحث من غاية ، فهي تغيير الصورة التقليدية الشائعة ، والعودة ، بغيرة وإخلاص تراثيين حضاريين ، إلى آفاق العصر المملوكي ، فنقرأ بتؤدة صفحاته وآثاره التي شمخت على الزمن ، فتصدرت كبريات المكتبات ، واستعان بهما معظم المؤلفين والكتاب من كل لون وفن .

أما الشعر ، الذي كان مدار حديثنا ، فلم يكن فقط لعبة أو حرفة مورست بمهارة ، وبراعة وتفنن كلامي من الخارج . بل كان إلى حد بعيد ، أحد أبرز منارات العصر مواكبة ونقلا وتاريخاً لشتى الجوانب والمرافق ، هزت أصحابه الانتصارات العظيمة ، فبادلوا بشعر أن لم يكن عظيماً ، فقد تمكن من القلوب واستحوذ الرضى ، وربما قصدت الجانِب الديني القومي الذي أولاه الشعراء ، ومعهم ملوكهم وسلاطينهم ، كل ما ملكت أيما نهم من حماسة وتضحية في سبيل الجهاد ، يدفعهم إلى ذلك أيضاً شعورهم بالمسؤولية العظمى الملقاة على عواتقهم ، إذ أنهم كانوا صوت الحق ولسان الخلق .

وهكذا نستطيع أن نسجل للشعر فضله . فقد كان حقاً صورة صادقة عن الملاحم الإسلامية والأحداث الكبرى ضد الفرنجة والتتار ، إذ أنه أدى واجبه كاملاً سواء أكان في الاستثارة والتحريض ، أم في وصف الانتصارات والفتوح الكبرى ، أم في تزجية البشائر والتهاني . وهو بعد هذا كله ، صفحة مشرقة للقومية العربية « (٦٢) » .

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ★ هذا البحث ، هو قسم ثان واخير لدراسة مطولة ، نشر القسم الاول منها في مجلة « الفكر العربي المعاصر » التي تصدر في بيروت عدد ٢٤ شباط عام ١٩٨٣ وهو بعنوان « بنية الدولة المملوكية » .
- ١ - راجع سيرة حياته ونبذة عن مؤلفاته في « الاعلام » ٣١٩/١ والدرر الكامنة ٣٧١/١ - ٣٧٣ و « البدايات والنهاية » ١٥٨/١٤ .
 - ٢ - عن د. عمر موسى باشا « ابن نباتة المصري » دار المعارف بمصر . ص ١٥٦ .
 - ٣ - المرجع السابق - ص ١٥٧ .
 - ٤ - نفسه - ص ١٥٩ .
 - ٥ - ديوان صفي الدين الحلبي ، دار صادر ، بيروت ص ٢١٠ - ٢١٢ .
 - ٦ - نفسه ص ٢١٩ .
 - ٧ - ياسين الايوبي « صفي الدين الحلبي » دار الكتاب اللبناني . ص ٥١ .
 - ٨ - المرجع نفسه ص ٤٢ .
 - ٩ - راجع هذه القصائد في « ديوانه » طبعة بيروت (ص ص ٧٠٥ - ٧٦٢) .
 - ١٠ - « ديوانه » ص ٧٠٦ .
 - ١١ - راجع نموذجاً لتوقيع ابن نباته في كتاب د. عمر موسى باشا : « ابن نباتة المصري » ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .
 - ١٢ - المشد ، هو الموظف الذي يرافق الوزير ويستخلص الأموال وما يشبهها . ولد سنة ٦٠٢ هـ وتوفي بدمشق (عن « النجوم الزاهرة » ٦٤/٧) .
 - ١٣ - راجع ما كتبه صاحب « النجوم » ٦٦/٧ و « شذرات الذهب » ٢٨٥/٥ - ٢٨٦ و « الاعلام » ١٧٧/٨ .
 - ١٤ - النجوم الزاهرة ٢١٩/٧ - ٢٢٠ .
 - ١٥ - نفسه ٢٢٤/٧ .
 - ١٦ - نفسه ١٨٩/٨ - ١٩٠ .
 - ١٧ - نفسه ٥٣/٨ - ٥٤ .
 - ١٨ - راجع تفصيل ذلك في كتاب : ابو العباس القلقشندي وكتابه « صبح الاعشى » ص ٩٥ وما قبلها .
 - ١٩ - ابن الازرق « بدائع السلك في طبائع الملك » جزء اول ص ٩ .
 - ٢٠ - ولد ابن شقير في دمشق سنة ٦٠٦ هـ وتوفي فيها سنة ٦٦٩ هـ (عن النجوم الزاهرة ٢٣٤/٧) .
 - ٢١ - ولد السليماني في اربل سنة ٦٠٢ هـ وتوفي بمدينة الفيوم بمصر سنة ٦٧٠ هـ (عن النجوم الزاهرة ٢٣٦/٧) .
 - ٢٢ - ولد التلعفري - وهو من « تلعفر » احدى ضواحي الموصل - وتوفي بحماة سنة ٦٧٥ هـ (راجع « الشذرات » ٣٤٩/٥ و « النجوم » ٢٥٥/٧ و « فوات الوفيات » ٦٢/٤ - ٧١) ، وللتوسع اكثر من ذلك . راجع د. عمر موسى باشا : « الادب في بلاد الشام » ص ٣٥٦ - ٣٧٨ .
 - ٢٣ - عن النجوم الزاهرة ٣٦٩/٧ . وقد ولد ابن تولواسنة ٦٠٥ هـ وتوفي سنة ٦٨٥ هـ .
 - ٢٤ - ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ٤٤١/٢ .
 - ٢٥ - عن « ابن نباتة المصري » ص ٢٢٩ .
 - ٢٦ - عن المرجع السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
 - ٢٧ - ن. م. ص ٢٦١ .
 - ٢٨ - نفسه ص ٢٥٨ .
 - ٢٩ - ياسين الايوبي « صفي الدين الحلبي » ص ٥٠ .
 - ٣٠ - ديوان صفي الدين الحلبي ص ٢١٥ - ٢١٧ .
 - ٣١ - مقدمة ديوان صفي الدين الحلبي ، ص ١٢ .
 - ٣٢ - سوف نعرض لكل هذه النقاط في سياق البحث .

- ٣٣ - ابن الصيرفي « نزهة النفوس والأبدان » مجلد أول / ٤٤ - ٤٥ .
- ٣٤ - ابن كثير « البداية والنهاية » مجلد ١٣/٣٢٧ - ٣٢٩ . ولم يذكر صاحب « فوات الوفيات » هذه القصيدة في المختارات التي أثبتتها (٨٢/٤ - ٩٦) والظاهران ابن شاعر الكتبي وكثيراً غيره ، لا يحتفظون من أشعار الشعراء ، إلا ما كان في الغزل والنسيب ، والمعاني الطريقة الأخرى . أما شعر السياسة والحمة القومية والدينية فلا يعرفونها كبير التفات .
- ٣٥ - النجوم الزاهرة ١٥٩/٧ - ١٦٠ راجع في المصدر نفسه أقوالاً مشابهة لقول الشهاب محمود ، للشاعرين: ابن النقيب الكناني (ت ٦٧٨ هـ) والموفق عبدالله بن عمر ، الودن (ت ٦٧٧ هـ) ص ١٦٠ .
- ٣٦ - عن د. عمر موسى باشا « الأدب في بلاد الشام » ص ٤٧٧ . وللشاعر الأنصاري نفسه ، وفي المرجع نفسه قصائد أخرى في (عين جالوت) وغيرها ، لا تخلو من جودة وصدق . ص ٣٣٩ و ٤٧٥ .
- ٣٧ - خليل الصنفدي « الوافي بالوفيات » ٣٦٢/٤ .
- ٣٨ - راجع الأعلام ٢٥٦/٢ .
- ٣٩ - « الوافي » ٣٦٢/٤ - ٣٦٤ .
- ٤٠ - (عن : « ابن نباتة المصري » ص ١٦٠ وفي هذا الموضوع مزيد من الشواهد الشعرية على « دولة الشعر » ص ١٦١ وما بعدها .
- ٤١ - راجع التعليق عليها في كتابنا : « مذاهب الأدب - معالم وانعكاسات » الجزء الثاني « الرمزية » ص ١٨١-١٨٢ .
- ٤٢ - النجوم الزاهرة ٣٦٦/٧ - ٣٦٧ . وللشاعر بهاء الدين ابن الفخر الأربلي (ت ٦٨٣ هـ) شعر شبيه ، في أطايب العيش ، وقد جعلها خمسة . (شدوات الذهب ٣٨٣/٥) .
- ٤٣ - النجوم الزاهرة ٣٤٥/٧ .
- ٤٤ - المصدر السابق ص ٣٤٦ .
- ٤٥ - شدوات الذهب ٣٦٤/٥ .
- ٤٦ - ديوان صفى الدين الحلبي . المقدمة ص ١٠ .
- ٤٧ - القرآن الكريم : سورة النساء / ٨٦ .
- ٤٨ - راجع تحليلنا تظاهرة المبالغة في المدح الشعري في كتابنا : « صفى الدين الحلبي » ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .
- ٤٩ - ديوان المتنبي (شرح العكبري) . الجزء الأول ص ١٨٢ ، من قصيدة يمدح فيها كافور .
- ٥٠ - أبو شامة : « تراجم القرنين السادس والسابع » ص ٢٢٢ - ٢٢٦ . وقد وقع في الأبيات بعض الخلل العروضي ، صوبت بعضها وقدمت وأخرت وفقاً لسياق الموضوع . والبيت الأخير ناقص مضطرب الوزن ، لم أهتم إلى تقويمه .
- ٥١ - انظر كتابنا « صفى الدين الحلبي » ص ١١٩ .
- ٥٢ - الوافي بالوفيات ١٠٦/٣ .
- ٥٣ - نفسه ص ١٠٨ - ١٠٩ .
- ٥٤ - النجوم الزاهرة ٣٦٢/٧ .
- ٥٥ - نفسه والصفحة نفسها .
- ٥٦ - الدرر الكامنة ٣٣٥/١ - ٣٣٦ . راجع في الموضوع ، والمصدر نفسه (ص ٢٢٨) حكاية الشاعر القاضي ابن أبي الرضا ، الذي حارب الفساد والنواقص ، حتى ولو كانت من السلطان برقوق نفسه ، الأمر الذي أدى إلى عذابه فمقتله ، فرائه الشعراء بصدق متناه .
- ٥٧ - راجع القصة في : الوافي بالوفيات ٤٢٠/١٠ - ٤٣٠ .
- ٥٨ - الوافي بالوفيات ٤٣٣/١٠ - ٤٣٤ .
- ٥٩ - انظر بعض ما أورده صاحب « ابن نباتة المصري » عن مدح الشاعر لبعض الكتاب والقضاة (ص ١٦٥ - ١٨٢) وكذلك مدح الشاعر علي بن مصعب للقاضي المؤرخ ابن خلكان (النجوم الزاهرة ٣٥٤/٧) ومدح الشاعر ابن تميم الدمشقي لخصال القتال والشجاعة في الجهاد (النجوم - ٣٦٧/٧) .

٦٠ و ٦١ - تاديج ابن كثير « البداية والنهاية » ٣١٣/١٣ - ٣١٤ وانظر كذلك « شذرات الذهب » ٤٠٣/٥ - ٤٠٤
ابن صاحب صفى الدين بن شكر المصري ، ينظم شعراً جميلاً في الحشيشة .

٦٢ - ٥٠ د عمر موسى باشا : « الأدب في بلاد الشام » ص ٤٨١ وانظر في هذا الصدد مقالة د. شوقي ضيف ، عن هذا
العصر ، في مجلة « المجلة » المصرية عدد شباط سنة ١٩٦٧ ، وقد لخصناه في كتابنا « صفى الدين الحلبي » ص
١٤٤ - ١٤٥ .

★ ★ ★

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابن الأزدق (أبو عبدالله) ، « بدائع السلك في طبائع الملك » جزءان . بغداد سنة ١٩٧٧ .
- ٣ - الأيوبي (ياسين) : « صفى الدين الحلبي » دار الكتاب اللبناني . ط . ٥ . أولى بيروت سنة ١٩٧١ .
- ٤ - الأيوبي (د. ياسين) : « مذاهب الأدب - معالم وانعكاسات » الجزء الثاني - الرمزية - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . ط . ٥ . أولى بيروت سنة ١٩٨٢ .
- ٥ - باشا (د. عمر موسى) : « ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق » دار المعارف بمصر طبعة ثانية سنة ١٩٧٢ .
- ٦ - باشا (د. عمر موسى) : « الأدب في بلاد الشام » ط ٢ - المكتبة العباسية - دمشق ١٩٧٢ .
- ٧ - ابن تغري بردي : « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » مصور عن دار الكتب المصرية .
- ٨ - الحنبلي (ابن العماد) « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » دار المسيرة - طبعة ثانية بيروت ١٩٧٩ .
- ٩ - الزركلي (خير الدين) « الأعلام » دار العلم للملايين ط ٤ . ٥ . بيروت ١٩٧٩ .
- ١٠ - أبو شامة المقدسي (شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل) : « تراجم القرنين السادس والسابع » .
- ١١ - الصفدي (صلاح الدين - خليل) : « الوافي بالوفيات » فرانز شتاينر . قسپان .
- ١٢ - صفى الدين الحلبي . (عبد العزيز بن السرايا) : « ديوان صفى الدين الحلبي » دار صادر - بيروت .
- ١٣ - الصيرفي (ابن داود) « نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان » جزء أول . دار الكتب المصرية - القاهرة .
- ١٤ - عبدالكريم (أحمد عزت) « أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الأعشى » - الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣ .
- ١٥ - المسقلاني (شهاب الدين ابن حجر) « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » . دار الجبل - بيروت - لا تاريخ .
- ١٦ - الكتبي (ابن شاکر) « فوات الوفيات » تحقيق د. احسان عباس . دار صادر بيروت - ١٩٧٤ .
- ١٧ - ابن كثير : « البداية والنهاية » دار الفكر . بيروت ١٩٧٨ .
- ١٨ - المتنبي (أبو الطيب) ديوانه بشرح العكبري - القاهرة سنة ١٩٧١ تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبدالحفيظ شلبي .